

عم بيرم الأب الروحي لكل شعراء العامية

بقلم: عبدالرحمن الأبنودي

الشتائم والتمزيق الذى تعرض له عم بيرم، جعلانى أشعر فى كتابة كتاب عنه من وجهة نظر أخرى تماماً ومختلفة عن كل ما كتب عنه، ويحوى جميع المقالات السامة، التى وجهها كالسهام ضده الزجالون الفاشلون، وعملاء السلطة، تماماً مثلما نتعرض له أحياناً، ولقد آذى ذلك عمنا بيرم أذى قاسياً، إذ أن الرجل طرد وشرد ونفى وتحمل ما لا طاقة له به، ويتعيش من حمل أشولة الملح والفحم فى مارسيليا وباريس وغيرهما من أجل مصر، ومن أجل تلك القصيدة التى كتبها فى الملك فؤاد، وفى الوقت الذى كان ينتظر الحفاوة والإشادة والمؤازرة من الجميع، إذ بهؤلاء القوم النشاز، ضعاف الموهبة، الذين يتواجدون فى كل مصر، يمزقون جسده بسكاكين باردة، فى الوقت الذى كان يئن من الغربية، وحتى بعدما تعاملوا معه كأنه خائن ومجرم فى حق مصر، نفس التهمة التى تتكرر فى كل جيل وتوجه للمخلصين من أبناء هذا الوطن.

وكثيرون ممن نعرفهم، كتبوا هذه السموم فى حق الرجل، الذى كان أحمد شوقى يخشى على الفصحى من أزجاله، وعمنا بيرم لم يكن زجالاً فقط ولا كاتب أغنيات، كما يحب البعض أن يلخصه تلخيصاً متعسفاً، وإنما كان كاتب حوارات أفلام بدوية، من الطراز الأول، وكتب مسرحيات كلاسيكية أشبه بالتراجيديا الإغريقية لا نعرف عنها هنا فى مصر شيئاً، كما لن ننسى اهتمامه بفن السيرة، وبالذات السيرة الهلالية وكيف قدمها فى الإذاعة بمشاركة الرائع الكبير زكريا أحمد والتى تغنت بها صباح، والتى كانت من ضمن أغنياتها «يا صلاة الزين على الأمرا يا صلاة الزين»، كما أنه وهو على ظهر السفينة التى اقتادته إلى المنفى، كتب كتابه النثرى «مذكرات فى المنفى»، وكذلك عندما هرب إلى تونس نشر مجموعة من المقالات فى

صحفها، ولم يجد ترحيباً من أهل أجداده التوانسة، فهرب مرة أخرى إلى مصر، وفيها قال قصيدته الأولى «قالوا عنى تونسى» .

ثم إن هذا الرجل هو التلخيص الأنقى لظاهرة فن الزجل، إذ كان من حوله مجموعة ضخمة من الزجالين، ومع ذلك فقد كان الأعلى صوتاً والألمع اسماً، ليس فقط بسبب نفيه، وإنما لاقتراب لغته من حياة المصريين، وإن كان فى كثير من الأحيان يحمل المصريين ذنب تخلفهم، متجاهلاً السبب فى ذلك وهو الحكومات الظالمة والاستعمار، ويلخص ذلك فى زجله «هاجن ياريت يا إخوانا ما روحتش لندن ولا باريس» .

ولا يجب أن ننكر أنه كان هناك مجموعة من الزجالين المهمين فى زمنه، من أمثال أبو بئينة وبديع خيرى، إلا أن بيرم لم يترك صغيرة أو كبيرة إلا وعبر عنها، وكان يجيد إفشاء أحوال الحارة المصرية بصورة عبقرية .

أما عن أغنياته فلا مجال للحديث عنها، لأن معظم الناس تعرفها، عدا أشياء المهمة جداً التى كتبها لسيد درويش ولزكريا أحمد، والتى تضمنتها الأفلام البدوية .

ويعتبر بيرم التونسى والد شعراء العامية الروحى، ويأتى فى قمة تسلسلنا جميعاً، صحيح أننا نقدم فناً مختلفاً عن فن الزجل وهو الشعر، والفارق كبير بين الزجل وشعر العامية .

فالزجل فن كان يسعى لمخاطبة الطبقة الوسطى، وهو نظام انتقادى يسعى للفكاهة والإضحاك فى معظم الأحيان، وإن كان بيرم ربطه بالحياة والأحوال السياسية .

إلا أن شعر العامية اشترك معه فى اللفظ والمعنى، والتى حولها فيما بعد إلى شعر حقيقى .

وعمنا بيرم الزجال الذى ربط الزجل العامى بالموقف السياسى، هو أول من سيس الكتابة بالعامية، وله نصيب فى كتابى «ديوان الزجل الكبير» وهو تأريخ لمرحلة التى كان فيها الزجل فى قمة دوره التنويرى والانتقادى .